ملاك الرحمة

بقلم الاب لويس فؤاد اليسوعي (تتمة)

متع النهار بعد سفر فرنسيسكو والفتاة ايثون لا تنقطع عن الصلاة لاجله . فلمّا غابت الشمس عاد الفقراء الى دار والدها فاكتنفوها اكتناف الهالة بالقمر والكمّ بالزهر . وكنت ترى فيما بين الصفوف صاحب الفروة والزيّ الجافّ فلمّا تحقّقتهُ ايثون بعد اقترابها منهُ سألتهُ عن طول المدّة التي تغيّب فيها عن الحضور فاحتجّ عن طول الغيبة بعصاب مُني بهِ وذلك ان حجرًا كان سقط على رجلهِ فحطّمها . وكان قد عصب رجله بأطمار بالية وهو يتعارج في مشيه

فقالت لهُ ايثون وقد غلبت عليها الرحمة : وكم يلزمك من الزمن لتقطع مسافة الطريق ما بين القصر ومقرّك ؟

— ساعتان ونصف سيدتي . . .

— ساعتان ونصف !

— نعم وناهيك سيدتي عما اشعر بهِ من الالم في قطع المسافة

لا غرو ان حديثًا كهذا لم يطرق آذان الفتاة الرحيمة دون ان يحرّك عواطفها ويستفزّ نخوتها فارادت ان تقري المسكين الجريح و . . . لكن وصيّة والدها بان تحذر من ادخال غريب في البيت مدّة سفره اوقفت رغبتها في عمل الخير وجعلتها في حيرة عظيمة . . . ما العمل ؟ . . . وبينما هي تتردّد بين عاملي الطاعة والرحمة خطر على بالها قول الرب : « تعالوا يا مباركي ابي لاني جعتُ فأطعمتموني وعطشت فسقيتموني وكنت غريبًا فآويتموني . . . »

فقالت لصاحب الفروة : « اقضِ الليلة معنا في القصر وعند الصباح تعود الى قريتك كما سبق لك الامر »

صلّى القوم طالبين تحقيق اماني سيّد الدار والفوز بمن يضمرون لهُ الشر وقلبُ صاحب الفروة يفور غضبًا . ثم انصرفوا وسار هذا مع ايثون داخل القصر فاوصت بهِ خادمها ڤكتور الذي داخلهُ العجب من صنيع سيدته حيث خالفت وصية ابيها

— هدئ الجأش يا ڤكتور . لقد سبق لصاحب الفروة القيام عندنا ليلًا فاضحى منّا

وزد على ذلك ما هو عليهِ من سوء الحال وضعف القوى لقطع مسافة ساعتين ونصف تحت جنح الظلام

اجاب ڤكتور: أفاتكَ رعبُ والدك وما طرأ عليهِ من الهواجس ليلة اضفتِ هذا المسكين ؟

— اضغاث احلام يا ڤكتور . وهل أصابنا ضرّ من جرّاء ذلك ؟

فظلَّ الخادم ساكتاً ولم ير بدًّا من مطاوعة سيّدتهِ ثمَّ عاد الى صاحب الفروة وجعل يرحّب بهِ طوعًا لامر ايڤون . ثمَّ دار بينهما الحديث والمسكين يتأوّه من ألم جرحهِ حيناً بعد حين حتى رثا لحالهِ ڤكتور وازالت رقّة قلبهِ للمسكين ما في فكرهِ من الريب بصددهِ . ثمَّ انبسط بالكلام واخبر الضيف بما كان من امر صاحب الدار وخروجهِ الى البلدة المجاورة لطلب الجند ليوقع باللص افوريجان وزمرتهِ على بغتة ويقطع دابرهم . وعرف الصعلوك في مطاوي الحديث انَّ القصر خالٍ من الحرس لم يبقَ فيهِ غير ثلاثة من الخدّام لخروج الباقين مع فرنسيسكو في طريقهِ وكان صاحب الفروة يصغو وقلبهُ يرقص طرباً حتى غلب النعاس على ڤكتور فقام بعد ان هنّأ ضيفهُ برغد النوم واطفأ القناديل . امّا ايڤون فانّها كانت صرفت ساعةً في صلاتها ثم اوت الى فراشها مطمئنّةً

وكان سواد الليل حالكاً . وهدأت في الدار كل حركة بعد خروج ڤكتور . وكان صاحب الفروة تمدَّد على فراشٍ أُعدَّ فكنت تحسبهُ راقدًا وهو في الحقيقة يقظان مشغول البال ينتظر نصف الليل بفروغ الصبر ليفتح باب المنزل لاخوتهِ المختبئين بين اشجار الغاب

دقّت ساعة القصر فعرف الشقيُّ من دقّاتها ان قد دنا الوقت فكان قلبهُ يخفق جزعاً . . . آه لم يبقَ لي الّا ساعة لشفاء غليلي والانتصار على فرنسيسكو . . . سر يا فرنسيسكو على بركة الله . . . اما انا فسعيي على هدى الشيطان وستعلم اعداء افوريجان ايَّ منقلبٍ سينقلبون

دقت ساعة القصر الدقّة الثانية عشرة وكان لكل دقّة رنين في صدر الخائن . . فقام يتجسّس الحيطان ويمشي في الظلمة لكنَّ منخاس الضمير اخذ يركضهِ فصرخ : ما هذا ؟ . . . احس بفتور في اعضائي . . . لقد انهدّت قواي . . . خاب مسعاي . . . آه

شبح ايڤون . . . اخونها وهي قد اضافتني واعتنت بي رغماً عن وصاة ابيهـا وتصدّي ڤكتور لها . . . ولكن كيف ارعوي وقد صار عدوّي مني على قاب قوسين فارجو منهُ غنيمة باردة ؟ دع عنك هذه الوساوس . قد حانت ساعة الفوز ولات حين ندم

وبينما هو على تلك الحال اذ سمع صوتاً من جهة غرفة ڤكتور فرجع لساعتهِ الى فراشهِ وبعد هنيهة انفتح باب الغرفة وظهر ڤكتور وقد استولى عليهِ الخوف : اني اسمع يا صاح وقع اقدام حول الدار كأني بالاعداء قد احاطوا بنا للداهية الدهياء !

— انظر لعلّهُ فرنسيسكو قد عاد الى قصرهِ مع فرقة الجند

— كلّا ليس هو . فاني سمعتُ ضوضاء وجلبة قوم معادين

— دعنا نبحث عن حقيقة الامر ولا نرعج اهل القصر

فسار كلاهما في الدهليز الطويل المؤدي الى باب القصر . وڤكتور قابض بيد على السكين وبالاخرى على يد رفيقه

فقال المملوك : اعطني السكين واتركني افتح الباب . فان رأيتُ عدوًّا غرستها في احشائهِ

— لا لا اني انا الفاعل

— دعني يا صاح . لاهل القصر عليّ حقوق وحق الضيافة مقدّس وهـذه فرصة استفتمها لاظهار ما انطوى عليهِ صدري من عرفان الجميل نحوهم

قال واختطف السلاح من ايدي ڤكتور وما شعر الخادم بالامر الّا واحسّ بطعنة في قلبهِ جندلتهُ على الارض مضرّجاً بدمائهِ فجعل يصرخ : اليَّ يا آل القصر لقد خاننا صاحب الفروة . فقام الخدم وتسارعوا الى الباب . اما الضيف الخائن فصاح الى زملائهِ : اليَّ يا آل الغاب لقد دقّت ساعة الظفر

وفُتح باب المنزل واذا بشرذمة من الاوغاد والهمج دخلوا القصر فانقضّوا على خدمة القصر وقد اخذ منهم الرعب مأخذه وتفرّسوا فيهم ولا تفرُّس الذئاب بالنعاج . ثم استقر بهم الرأي ان يقبضوا على ايڤون دون ازعاجها فيبقونها معهم لسيرة ليتوعّدوا اباها بقتلها ان لم يُجب الى سؤلهم

اما ايڤون فانها عند سماعها بصريخ الخدمة وصياح اصحاب افوريجان ووقوفهـا على حقيقة الامر اظهرت من ثبات القلب ما قلّ وجودهُ في فتاة تناهز الثامنة عشرة

من العمر فجثت على ركبتيها امام صورة المصاوب المعلقة في محلّ نومها وبقيت مستمرّةً في صلاتها حتى فُتح عليها الباب فجأة ودخل عليهـا افور يجان يتبعهُ اصحابه

— كفاكِ صلاةً يا ايثون فان الصلاة لم تُجدكِ نفعاً وهاءنذا يد صاحب الفروة قد نالت ما لم تنلهُ صلوات اولادك الفقراء وتضرعاتهم التي لم تلاق في السماء مجيباً

فاجاب احد اترابه : ليس المجال مجال خطاب او وعظ هيَّا بنا الى ما هو اهمّ والوقت قصير اين هو يا فتاة مخبأ ثروة والدك فرنسيسكو ؟

— هذا سرٌّ اوقفني عليهِ ابي ولا اضنُّ بهِ عليكم ولكن دعوني اوّلاً أرحّب بكم فاقدّم لكم شراباً تروون بهِ غليلكم . فاذا استرحتم قليلاً اخذت بكم الى مخبأة المال على شرط ان لا تلحقوا بي اذًى

— كلّا لا نريد لك سوءاً

— وان سمحتم رافقتكم الى مقامكم لاعيش بينكم

— هذا جلُّ ما نشتهيهِ يا ايثون فانتِ منّا وفينا

— فهلمّ بنا نشرب معاً كأساً على سرّ هذا الاتحاد

فقوبل كلامها بتهليل فصرخوا الجميع : نعمَ الرأي رأيكِ

ثم قادتهم حول مائدة متّسعة وما كان اسرع من لمح البصر الّا وأعدّت الكاسات وسالت بنت العنقود . فيهـا فجعل كل يرفع الكأس ويشربها على سرّ الاتحاد وايثون تعيد الدور كلما فرغت الكاسات الى ان قام احدهم والاحمرار قد علا وجههِ واتّقدت عيناه شراراً فقال : حذارِ حذارِ يا اخوان فانها لَمكيدة أُعدت لنا . اين المال يا ايثون ؟

— اتبعوني فهو لكم ان شئتم

فطفر الكل وهم يتناشدون الاناشيد ويتغنّون بالاغاني وقد غلبت على اكثرهم سورة الخمرة ثمَّ تبعوا آثار ايثون فاتزلتهم الى قعر القصر حيث كان سربٌ عميق فيـهِ النبيذ والمؤونة فقالت لهم : ترون في هذا السرب عدداً من البراميل والاكياس البعض منها موسوم بعلامة الصليب والبعض الآخر لا علامة لهُ فما كان منهـا معلماً فهو حاوٍ على اموال فرنسيسكو

فما انتهت من كلامها الّا وترامى اللصوص على البراميل والاكياس يفحصونهـا براميلاً براميلاً واكياساً اكياساً وايثون تساعدهم مشجعةً اياهم وهي تقول : ان صندوق

الذهب قد أُخفي في اقصى القبو. وما سمع افوريجان كلامها حتى انقضّ كالعقاب طائرًا الى حيث اشارت ايفون وفي يده القنديل تاركًا اخوته في الظلمة فقالت ايفون: ها انا آتيكم بمصباح. قالت هذا واسرعت كلمح البصر فخرجت من السرب وكان لهُ باب من الحديد فأقفلته قفلًا محكمًا

ثمّ جعلت ايفون تطوف في نواحي القصر آسفةً على ما حلّ بخدّامها الامناء. وقد اصبحوا جثثًا رميمة لا حياة لهم — فاذا بدبيب مع صوت وقع اقدام طرق اذان الفتاة فاضطربت خوف ان تكون اهملت تحكيم قفل باب السرب وخرج اللصوص فجثت على ركبتيها وهي ترتجف هلعًا وصرخت: الهي كن عوني» . . . فما كان اعظم اندهاشها لمّا رأت اباها فرنسيسكو يأخذ يدها ضامًا اياها الى صدره: ابنتي! ابنتي!

— ابتي انت هنا؟

— نعم يا ايفون لقد اخذ البلبال والقلق مني مأخذهما اثناء الطريق فكنت احاول الرجوع لأتحقق امرك ورفقتي يسكنون جأشي محرضين اياي على اتباع السير. فارسلت بهم اخيرًا الى الحاكم الايطالي وعرّجت اليك مع ثلاثة من الحرس فقط. آه قلبي كان يحدثني انك في خطر وقلبي الابوي لم يخدعني

— سكّن روعك ابتِ ان الاعداء في قبضتنا

ثمّ قصّت عليه ما جرى

— ما اثبتكِ جأشًا واقواكِ جنانًا

— قل ما اعظم قوّة صلوة اولادي الفقراء ان صلوة الفقير لا يخيبها الله

*

وبعد أيام قليلة كنتَ ترى في مدينة باميا جمًا غفيرًا قد اجتمع في ساحة المدينة ينظرون الى مخشّب مرتفع فوقهُ مشانق عُلّق عليها عشرون من اللصوص وبازائهم علمٌ قد كُتب فوقهُ: «هذا جزاء الاثمة الذين دخلوا ليلًا بيت فرنسيسكو فنجت ابنتهُ من مخاليبهم وما ذاك الّا جزاء اعمالها الصالحة وتحننها على المساكين. هكذا يثيب الله ملاك الرحمة»